الكتب

شاعر العقيدة

تأليف الأستاذ محمد تقي الحكيم

للأستاذ ابراهيم الوائلي

لعل مدينة النجف الصغيرة هي ثالثة المدن العراقية التي احتضنت تراث العرب والمسلمين بعد بغداد والحلة ، وقد كانت مثابة لطلاب العلم ومجالا فسيحا للغة العربية وآدابها في أواخر العصر العثماني ، وكان تميزها بكثرة النوابغ من الشعراء — عدا العلماء والمؤلفين — ظاهرة يعترف بها التاريخ في أوسع مصادره الحديثة، وكادت تفقد مركزها الأدبي في السنوات الأخيرة لو لم يتح لها جيل جديد ينشط للبحث والتطلع ويسير في الموكب الصاعد ، فكانت (جمعية الرابطة الأدبية) ذات طابع شعري معروف ، وإلى جانبها جمعية (منتدى النشر) وقد أسست لتجمع بين القديم والحديث . والتف حول مناهجها ودروسها طائفة غير قليلة من شباب النجف والمدن الأخرى ، وهي تعمل في شكل فصول وامتحانات كما يفعل الأزهر في مصر ، ولم تكتف بالدرس العلمي والبحث اللغوي بل دفعت هؤلاء الشباب إلى مجال الأدب الواسع يقرؤون ويهضمون ثم يكتبون وينشرون ، ومجلة (البذرة) هي منبرهم الذي يتبارون عليه ، وكانوا يتيحون لنا — هم وأساتذتهم — أن نستشف خلال تلك المسارب الضيقة ومضات تبشر بوجود قوة الاستمرار لتلك الشعلة التي طالما توهجت على ربوة النجف الخضراء في قرون كثيرة ، وبالرغم من أن العناصر الرجعية من (الرسميين) وغيرهم لا يريدون لهذه الجمعية أن تسعى في طريقها الإصلاحي فإنها بقيت تصارع وتعمل

سيجارة غدارة   قد حرمت جفني رقاده !
هيفاء تغري كل ثغـــر   بالصبابة والوداده
طالقتها وأنا المحـــب   فبعدها عني سعاده !
ماذا يفيدك من دخا   نك بعد ما تذرو رماده ! ؟
إما اضطراب في التنفـــس   قد يجر إلى الشهاده !
إما سعال فاتك   يدعو إلى باب العياده !
صدر المدخن كالظلا   م فلن ترى إلا سواده !
خير الأمور لعاقل   ألا يكون أسير عاده !
من لم يضح فلا تصح   لمثله فينا القياده !

السيجارة

أنسيت أني راحة   من كل نازلة وسلوى ؟
أنسيت باعثة الخيا   ل إذا النهى أكدى وأقوى ؟
قبلات تغري متعة   وحديثها همس ونجوى !
تحنو على إذا ظمئـــت   فتحتسي مني وتروى
أنفاس غانية من القبـــلات والصبوات نشوى !
في جوها سبح الخيا   ل بكل ما تصبو وتهوى
تتصاعد الأنفاس في   دنيا من الآمال تطوى
فكأنها النغم الرقيـــق   يراقص الأفكار زهوا
فلم التباغض والقلى   وأنا التي بالنار أكوى ؟
أيليق هجران الحبيـــب   وحفظه للود يروى ؟
أنسيت أن الهجر بعـــد   الوصل للعشاق بلوى ؟
راجع فؤادك فالمحـــب   على التباعد ليس يقوى

فأجاب الشاعر:

أبداً فلســـت براجع   عن هجرها طول المدى !
من ذا الذي يهفو إلى   ثغر ثناياه الردى ؟
آليت لا أصغي لهـــا   أبداً وأتركها سدى !
لو زحزحت جبل المقطـــم   ما مددت لها يدا !

محمود محمد بكر هلال

بصمت وعدوه فى سبيل رسالتها العلمية والأدبية

وقد استثمرت هذه الجمعية جهادها فى التأليف والكتابة فكان إنتاجها ضخما فى الكم والكيف بالرغم من أن عمرها لا يتجاوز خمسة عشر عاما . ومن ثمرات هذا الجهاد كتابان تفضل بهما على مؤلفاها الكريمان وأنا فى مصر ، وأول الكتابين (السقيفة) لفضيلة الأستاذ محمد رضا المظفر معتمد الجمعية ، وثانيهما (شاعر العقيدة) للأستاذ محمد تقى الحكيم سكرتير الجمعية ، أما الأول فليس من السهل أن أتحدث عنه دون أن أتوفر على دراسة التاريخ الذى تكونت منه فصول الكتاب ، وكنت أود أن يكون غيرى هو الذى يكتب عنه ، لذلك سأتناول الكتاب الثانى بشئ من العرض والتعريف وتسجيل بعض الملاحظات بقدر ما تسمح به صفحات الرسالة

(شاعر العقيدة) — كما أراد أن يسميه الكاتب — هو السيد إسماعيل بن محمد الحميرى وقد أدرك أواخر العصر الأموى وعاش بقية حياته فى ظلال العصر العباسى حيث تتصارع الأفكار السياسية والعقائد الدينية وتتشعب الدروب بسالكيها شعبا متعددة ، فهناك بقايا الخوارج الذائبين ، وشيعة تجمعهم هذه الكلمة فى معناها المادى وتفترق بهم مناحى التشيع فى مسالك شتى . وهناك طائفة السنة التى كانت تسيطر على السياسة والحكم ، وفى هذا المضطرب الواسع كان السيد الحميرى يصطرع مع السياسة والعقائد حتى استقر به المطاف على مذهب التشيع السائد الآن فى العراق . وكان تأثير السياسة والعقائد واضحا فى شعره وبخاصة الظاهرة الأساسية من ظواهر التشيع وهى (الإمامة) فقد كان يلح بشعره على حديث البيعة وقصة (غدير خم) التى كانت بعد حجة الوداع كم تروبها الكتب التى أوصلها المؤلف إلى ثلثمائة ، ومعظمها — كما يقرر — مروى عن طرق السنة

وقد أراد المؤلف الفاضل أن يلم بدراسة هذا الشاعر ويستخرج من المصادر المتفرقة صورة تطمئن إليها النفس عن نسبه وحياته العقلية والمادية والأدبية والدينية ، وقسم الكتاب إلى قسمين : أولهما : فى نشأة الشاعر وتقلبه فى مراحل العقيدة وشعره الذى يصور هذه العقيدة ، وثانيهما : دراسة هذا الشعر على ضوء النقد والتحليل ، وقد وفق الكاتب فى القسم الأول حين عرض لنشأة الشاعر فى البصرة وتطوره من خارجى — ورث ذلك عن أبويه — إلى شيعى كيسانى فجعفرى . وصراعه مع أبويه اللذين ينكر عليهما بغضهما الإمام عليا وينكران عليه تشيعه ، كما أن وصف البصرة وما فيها من حلقات علمية ودينية واختلاف السيد الحميرى إلى هذه الحلقات التى انتهى منها بالتشيع ، وتحدث عن صلته ببقايا الأمويين ثم العباسيين . وقد كان فى كل ذلك يقارن ويوازن ويدرس الروايات المتناثرة ثم ينتهى منها إلى رأى أو حكم لا يخلوان من أصالة فى معظم الأحيان . ولكن الذى يؤاخذ عليه الكاتب الفاضل أنه وزع البحث توزيعا يكاد يضطرب على القارئ فهو لم يعقد فصلا خاصا عن أثر العقيدة فى شعر الحميرى بل نثر هذه الظاهرة البارزة فى أماكن مختلفة لو أتيح لها أن تلتقى فى مكان واحد لكانت فصلا قيما . ولعل هذا العنوان الذى اختاره الكاتب يكاد يتضاءل عند التطبيق على فصول الكتاب . فقد كان الأجدر به أن يعقد فصلا خاصا بالبيئة العصرية فى مختلف نواحيها ، وفصلا عن نشأة الشاعر والنقلات المذهبية التى رافقت حياته ، ثم فصلا عن أثر هذه العقائد فى شعره إلى جانب الأثر القبلى ، وأن يكون البحث فى صلة برجال الحكم والسياسة مستقلا إلا بمقدار ما يتصل بالعقيدة . على أننى لا أنكر — كما قلت — أن الكاتب قد تعرض لذلك بإسهاب ولكن منهج البحث قد اضطرب عليه . أو أنه اختار لنفسه منهجا أدى به إلى هذا التقسيم المشوش . وإذا كان الكاتب قد استعان — كما يقول — بعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما فإن استعانته تكاد تتضاءل فى المواطن المهمة ومنها تصوير المجتمع تصويرا واضحا ليصل منه إلى دراسة الشاعر دراسة واضحة ، ثم دراسة العقيدة الدينية من حيث هى بوصفها ظاهرة اجتماعية وبوصفها عاملا قويا فى تكوين حياة المرء وسلوكه الخارجى وما ينتجه هذا السلوك من صور أدبية ، ثم تطبيق هذا الإنتاج على مظاهر تلك العقيدة ، لاشك أن اضطراب المنهج أضاع على الكاتب أن يجعل من تلك الدراسة الثمينة فصولا

يستقل أحدهما عن الآخر ليصح معها التدرج المنهجي ، وهذا الاضطراب هو الذي أوقع الكاتب في زاوية ضيقة المنافذ حين تحدث عن صلة الشاعر بالعصر الأموي المحتضر وموقفه من ذلك العصر فقد قال :

(.. وقد كان لها — أي الدولة الأموية — من سياستها « الميكيافيلية » الوصولية التي كانت تبرر في سبيل السلوك إلى غايتها أية وسيلة دنيئة ما يحسس الرأي العام ويحفزه إلى نقد أعمالها والنقمة عليها .. وهذا ما يعلل كثرة الناهضين عليهم من القادة والعاملين على تقليص نفوذهم . على أن كثيرا من الناس — ومنهم صاحبنا — كانوا لا يقرون لها خلافة ولا يرونهم أهلا لها مع وجود أربابها الشرعيين من أهل البيت .)

أليست هذه العبارة مضطربة لا تلتقي عند النقطة التي يجب أن تلتقي عندها في حياة الشاعر وعقيدته؟ فلو أن الكاتب الفاضل أشار إلى العقيدة الإسلامية من حيث هي وتعرض للنص الصريح في الصفات التي يجب أن تتوفر في الخليفة واعتقاد الشاعر هذا النص لانتهى إلى تحديد الثورة عند الشاعر ولاكتفى بالفقرة الأخيرة ولم يتعرض إلى سياسة الأمويين (الميكيافيلية) فالثورة هنا هي ثورة عقيدة دينية هاشمية علوية لا ثورة على السياسة (الميكيافيلية) لأن العباسيين لم يكونوا بأقل (ميكيافيلية) من الأمويين؛ ومع ذلك فان الشاعر وقف يمدحهم ويؤيدهم. وقد أشار الكاتب الفاضل إلى هذه النقطة الأخيرة متفقا مع الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء على مدح السيد الحميري للعباسيين وأنه لم يكن عن تقية : (لأنهم من بني هاشم وبنو هاشم بالنسبة إليه على حد سواء)

أما دراسة هذا الشعر من حيث قيمته الفنية ومقدار استجابته للصدق في التعبير والشعور فقد كان الكاتب موفقا إلى حد كبير فيها ، وقد تعرض لمقدار الثروة الشعرية التي خلفها ، واضطراب الرواة في تقدير هذه الثروة ، وأشار إلى آراء النقاد الأقدمين في قيمة هذا الشعر ، وأضاف إليها شيئا من آراء المحدثين — وقد أعجبتني من الكاتب لفتته البارعة إلى شعر الحميري بقوله :

« فبعضه يرتفع بصاحبه إلى القمة وبعضه الآخر يهبط به إلى الحضيض ، ووسط بين هذا وذاك . » كما أنه أشار إلى أن بعض هذا الشعر يكاد يدس على الشاعر وينسب إليه نسبة لا تليق بذلك العصر . هذه لفتة بارعة — كما قلت — وقد عرض عليها بعض القصائد المدسوسة ، أو التي انحط بها الشاعر ، ولكنه نسي أن يعرض عليها قصيدته المشهورة التي شغلت شيئا من جهد الكاتب في معرض الحديث وهي :

لأم عمرو باللوى مربع طامسة أعلامها بلقع

إني أشك في كثير من أبيات هذه القصيدة لا لفكرتها وموضوعها ولكن لموسيقاها اللفظية وانسجامها مع ذلك العصر الذي اشتهر بجودة الاختيار وحسن الإيقاع ، فقوله :

فمنذها قام النبي الذي كان بما يؤمر به يصدع
يخطب مأمورا وفي كفه كف على ظاهرا تلمع
رافعها ، أكرم بكف الذي يرفع والكف (الذي) يرفع

إنها فكرة السيد الحميري التي يرددها في معظم قصائده ولكنها ليست موسيقاه ولا ألفاظه بغض النظر عما في بعض أبياتها من اضطراب في النحو واللغة

وقد كنت أود ألا يقتحم الكاتب باب الغزل والنسيب وما يتصل بالمرأة في هذا الكتاب لأن العنوان لا يتحمل أن يندرج فيه ما ليس منه

أما أسلوب الكتاب فيبدو قصصيا في بعض الصفحات وبخاصة في حديثه عن نشأة الشاعر الأولى ، وخطابيا في بعضها الآخر ، وهو في الأول متأثر بأسلوب الدكتور طه حسين

ومهما يكن من شيء فان في الكتاب ذخيرة من بحث واطلاع لا يتوفران إلا للقليل من الشباب الباحثين ، ولعله من خير ما كتب عن السيد الحميري في الأيام الأخيرة وإذا كانت هناك ملاحظة أخرى فهي ملاحظة شكلية تتعلق بطبع الكتاب فقد كنت أود أن يطبع طبعا ممتعا به ، ولقد نسيت أن أقول إنه الحلقة الحادية عشرة من سلسلة (حديث الشهر) التي يصدرها في بغداد السيد عبد الأمير السبيتي وهذا جهد يشكر عليه

القاهرة ابراهيم الوائلي